الفَصْلُ الثَّانِي

وَقَفَاتٌ مَعَ المَنْهَجِيَّاتِ

obeikandl.com

obeikandl.com

الوقفة الأولى: التعميم

التديُّن بوَّابة واسعة مفتوحة لكل الناس، ولا يملك أحد من الناس، مهما أوتي من القوَّة والحجَّة، أن يمنع أحدًا من دخولها، فليس هناك حارس أو حُرَّاس لهذه البوَّابة، يُدخِلون الأعضاء، ويمنعون غير المنتمين إلى عالم التديُّن. والتديُّن أيضًا حاجة بشرية لكلِّ الناس، يعبَّر عنها بانتماءات مختلفة، كلُّها تصبُّ في المفهوم العامّ للتديُّن،(١) وهو الانتماءُ لفكر بعينه، ومبادئ ومثُل وأحكام (تعاليم) قابلة، في الغالب، للتطبيق على الواقع.(٢)

وهذا ينطبق على التديُّن بالمفهوم الإسلامي، أكثر من أي فكر آخر. فلا يحدِّد الإسلام هويَّة المتديِّن، من حيث عرقُه، أو جنسُه، أو خلفيتُه الثقافيةُ، أو غيرها. ومن هنا جاءت بوَّابة التديُّن واسعةً مفتوحة، بل إنها لا تؤمن بهذا المفهوم للبوَّابات، التي توحي بإمكانية الوصد.(٣) ولأن المجال مفتوح للجميع فإن بالإمكان أن

---

(١) انظر في نشأة الدين: علي سامي النشَّار. **نشأة الدين: النظريات التطوُّرية والمؤلِّهة.** — الإسكندرية: دار نشر الثقافة، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م. — ٢٣١ ص.

(٢) وعن حاجة الأمم إلى الدين انظر: السلسلة عن الدين، التي أصدرتها السيدة **أبكار السقَّاف**، على النحو الآتي: **الدين عند الكلدان والسومريين والبابليين. الدين عند العبريين. والدين في الهند والصين وإيران. والدين عند الإغريق والرومان والمسيحيين. والدين في مصر القديمة.** — القاهرة: العصور الجديدة، ٢٠٠٠م. — (سلسلة نحو آفاق أوسع؛ ١ — ٥).

(٣) انظر في محاولة التعرُّف على أديان العالم، غير ما كتبه الشهرستاني في: **الملل** =

openkandari.com

يدَّعيه فئة من الناس، تعارفنا عليهم بأنهم المنافقون، فتراهم يستخدمون التديُّن مطيةً، يصلون بها إلى أغراضهم، ولا تهمُّهم في هذا الإساءة إلى مفهوم التديُّن، وإلى المتديِّنين الحقيقيِّين. وقد وجدتْ هذه الفئة في الماضي، وهي موجودة في الحاضر، وستوجد في المستقبل، ولذا فإنه من الموضوعية والتجرُّد والعلمية (الأكاديمية) عدم أخذ هذه الفئة، على أنها حُجَّة على المفهوم، وعلى الصادقين في تبنِّيه.[1]

وفي هذا ردٌّ على أحد الكُتَّاب الذين عمدوا إلى التعميم في الأحكام، بذكر قصَّة من الماضي، وقصَّة من الحاضر، استُغلَّ فيها التديُّن لتحقيق أغراض، تتنافى مع متطلَّبات التديُّن. فيلجأ هذا الكاتب، الناشئ في بيئة متديِّنة، إلى الاستخفاف بالتديُّن والمتديِّنين، ليس لأنه علم عن هذه القصَّة أو تلك، بل إنه ربَّما بيَّت النيَّة، والنيَّات في القلوب، على الحطِّ من المفهوم، ثم استعان بعد ذلك بحادثة أو حادثتين، لبستا كل الممارسات باسم الدين، فالحكم سابق على الحوادث، هنا، لحاجة في نفس يعقوب.

=

والنِّحَل، وغير ما كتبه ابن حزم في: **الفصل في المِلل والنِّحَل**: فراس السوَّاح. **دين الإنسان: بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني**. ـ ط ٤. ـ دمشق: دار علاء الدين، ٢٠٠٢م. ـ ٣٩٩ ص.

(١) انظر في محاولة التفريق بين الدين والتديُّن، وعلم الدين: زكي نجيب محمود. **قيم من التراث**. ـ القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩م. ـ ص ١٤٣. ـ (مشروع مكتبة الأسرة).

obeikandi.com

وفي الوقت الذي يستفيد فيه بعض المنافقين، المندسِّين بين المتديِّنين، في تحقيق أغراض قريبة، أو بعيدة، تجد أن الفئة التي تجعل من المنافقين حُجَّةً على الجميع، تستفيد في تحقيق أغراض قريبة أو بعيدة. والضحيَّة في النهاية هو المفهوم نفسه: التديُّن الصادق، الذي يُهان من بعض المنتفعين المتاجرين به، وهم قِلَّة ينكشفون، ومن بعض الذين لا يعجبهم أن يروا الدين مسارًا عامًا يطرقه الجميع، كل بحسب تقواه، وقربه من اللّٰه تعالى.

ومن الموضوعية والتجرُّد أن يبحث في الحالات الخاصّة، ولو كثُرت، التي تشذُّ عن المسار العامّ للتديُّن، للتعرُّف على سبب هذا الشطط فيها، نفاقًا، أو تشدُّدًا، أو انفلاتًا، أو سوء فهم للدين، قد يكون غيرَ مقصود، بدلاً من نبذ فكرة التديُّن، أصلاً، والسعي إلى تشويهها، رغبةً في اقتلاعها من المجتمع. ولا يبدو أنها قابلة للاقتلاع والوأد، بقدر ما هي قابلة للتوجيه والترشيد، ومع هذا التوجيه والترشيد وحملات التوعية على مختلف القنوات، ستظل فكرة النفاق ملازمةً لأي مفهوم من المفهومات، التي يُراد لها التطبيق على بني البشر، ومنها مفهوم التديُّن، ولن يأتي اليوم الذي يخلو فيه المجتمع، أيُّ مجتمع، من المنافقين، ينكشف بعضهم ويظلُّ آخرون منافقين، مردوا على النفاق، لا نعلمهم، اللّٰه يعلمهم.

والمؤمَّل أن يأتي اليوم الذي يُحجِم فيه بعض الناس عن التصيُّد للحالات الشاذَّة، ثم تعميمها على الجميع، إذ إن الوعي العامّ بالدين

والسعي إلى فهمه، فهمًا صحيحًا، خاليًا من بعض مخلّفات اجتماعية محلية تقليدية علقت فيه، هذا الوعي العامّ كفيل بالإلزام الأدبي العلمي بعدم التعميم في الأحكام. على أن هذا التعميم غير العلمي لا يُنقص من مفهوم التديُّن شيئًا، بقدر ما يسيء إلى المعمِّمين، ممن لا ينتظر منهم التعميم. ومن طبيعتنا التي يمليها علينا ديننا أن نبحث للجميع عن الخير، فلا يستأثر به أحدّ على حساب آخرين.

--- --- ---

obeikandl.com

الوقفة الثانية: النصيحة

الدين النصيحة، والمسلم مرآة أخيه، وللنصيحة وسائلها وآدابها، والمنصوح في الأصل يتقبَّل النصيحة، إذا روعيت فيها آدابها. وكم شخص عَدَل عن منكر يفعله، أو أقلع عن عادة سيئة تورَّط بها، عندما وفَّقه الله تعالى لمن يجيد إسداء النصح له. ومع التأدُّب في النصيحة تتحطَّم حواجز الكبرياء والتعنُّت والعناد، التي جُبَل عليها بعض الناس. وإساءة الأدب في النصيحة تنتج شيئًا من المكابرة، والإصرار على المنكر، الذي يُراد من الشخص المنصوح أن يقلع عنه.

وليس هذا حديثًا عن آداب النصيحة، فهي لا تخفى على فطنة القارئ، ولكنها الرغبة في التوكيد على الحاجة إليها، لدى الأفراد، بغضِّ النظر عن مكانتهم الاجتماعية، ومسؤولياتهم الوظيفية تجاه المجتمع. وأظن أن شخصًا ما قد ابتلي بعادة مستهجنة، أو أنه يزاول منكرًا ممقوتًا، يتوقَّع في وقت من الأوقات أن يُسِرَّ له أحد المخلصين بالنصيحة الصادقة، التي تخرج من القلب فتستقرُّ في القلب، وهو يترقَّب مثل هذه المبادرة، ولكنه قد لا يعلم من أين تأتيه. وإذا ما تأخَّر الوقت، واستمرَّ هذا الشخص في مزاولة هذه العادة السيئة، أو الإحجام عن معروف مطلوب منه القيام به، فإنه قد يَتَّهم نفسه أن المجتمع راضٍ عن هذا السلوك، أو أنه لا يرى فيه منكرًا يستحقُّ أن ينصح صاحبه بالإقلاع عنه، فيستمرُّ في

هذا، والاستمرار في المنكر يؤدِّي إلى استساغته، ثم قد يؤدِّي إلى الولوج في منكر أشدَّ منه. والإحجام عن معروف أهمَّ منه، مع التجوُّز، هنا، في مسألة الأهمية، ولكن بعض الذنب أعظم من بعض.

والنصيحة لبنة طيِّبة في بناء المجتمع، ولذا تعبِّر الآثار عن أن المسلم إنما هو انعكاس لأخيه المسلم، يرى فيه ذاته، فيعدّل ما اعوجَّ في ذاته. وإذا ما أراد أن يخفي منكرًا يزاوله تراه يقف عند النص الآخر الذي يقول فيه الرسول ﷺ: «الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطِّلع عليه الناس».[1] ولو اطَّلع عليه الناس لاستهجنوه، ولما قبلوه من الشخص، وفي المجتمع الذي يقوم على هذه الصورة الطيِّبة في الاستقامة في السلوك.

وهناك دعواتٌ صادقةُ، ومتكرِّرة، إلى التنبيه إلى الهنات، التي يقع فيها المرء دون أن يشعر، أحيانًا، فيبصَّر بما لها من آثار سيئة على المرء نفسه، وعلى من يحيط به من أبناء المجتمع وبناته. كما أن هناك دعواتٍ صادقةً، ومتكرِّرة، إلى التنبيه إلى الهنات، التي يقع المرء بها وهو يشعر، لكنه يحتاج إلى من يذكِّره بما لها من آثار سيئة عليه

(١) رواه مسلم في كتاب البرِّ والصلة والآداب، باب تفسير البرِّ والإثم. حديث رقم ٤٦٣٢. ورواه الترمذي والدارمي وأحمد بن حنبل. ولفظ الدارمي: «البرُّ ما اطمأنَّت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردَّد في الصدر، وإن أفتاك الناسُ وأفتوك». من باب: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك. من كتاب: البيوع. حديث رقم ٢٥٣٦.

obeikandi.com

هو، ثم على من يحيط به من أبناء المجتمع وبناته. وأظن المرء يقع في صراع مع الشيطان، في مثل هذه المسألة، فإذا وفِّق إلى من يعينه على الخير ويدلُّه عليه أقلع عن المنكر وعمل الخير.

ونعلم أن الشيطان حريص، بعد أن تعهَّد بغواية بني آدم، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (ص ٠٧٩–٠٨٣). ولذا فإنه يرى في الناصحين المخلصين أعداءً له، يخافهم، ويسعى إلى التقليص منهم، ومن تأثيرهم. وفي الوقت نفسه تحتاج النصيحة، مع آدابها، إلى العلم بما هو مجال للنصح، ولابدَّ من وجود العلم؛ لأن المنصوح قد يكون أخذ برأي في مسألة، والناصح لا يعرف عن المسألة إلا رأيًا واحدًا، ويريد من المنصوح أن يقلع عن سلوك، أو يمارس سلوكًا خاضعًا للنقاش بين علماء الأمَّة، سلفِهم وخلفِهم. وحوله مجموعة من الآراء القائمة على الاجتهاد في فهم النصوص.

وكما أن النصيحة تحتاج إلى العلم، فهي أيضًا، كما هي الحال في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحتاج إلى الرفق وإلى الصبر والتحمُّل.[1] والنصيحة بهذا هي جانب من جوانب

---

(١) أحمد ابن تيمية. **مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية.** — ٣٧ مج/ جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمَّد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي. — الرياض: دار عالم الكتب، ١٤١٢هـ/١٩٩١م. — ٢٨: ١٣٧.

obeikandl.com

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتأخذ متطلَّبات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بالإضافة إلى آدابها الخاصّة بها. أما من جانب المنصوح فإنه مطالب، أيضًا، برحابة الصدر، وتقبُّل النصيحة، والشكر لمسديها، ولو بدا من الناصح عدم إلمامه بالموضوع بحال النصيحة، وهذا تشجيعٌ على انتشار هذا المفهوم بالمجتمع، مع تنبيه الناصح بوجوه النقص في الوصول إلى التأثير المراد.

--- --- ---

obeikandi.com

الوقفة الثالثة: النقد

من أجمل ما يخرج به الراغب في الاطلاع على التراث العربي الإسلامي والشعبي، هو الخروج برؤية أكثر وضوحًا للفهم وسعته، والأفق واتِّساعه، وكلَّما عبَّ الواحد منا في القراءة زادت لديه مقوِّمات الفهم. هذه قاعدة تُطلق، في مثل هذه المواقف، وتحتاج إلى إثبات بالحُجَّة والبرهان، وحُجَّتها وبرهانها هذا الواقع الذي نعايشه، والأشخاص الذين نتعامل معهم، إذ إن فَهْم من تبرز فيه، بوضوح، هذه السمة المكتسبة، وهي الفهم، يتبيَّن من خلال التعبير الذي يَنقل من خلاله أفكاره إلى الآخرين، وبالتالي تراه صاحبَ رأي، ولديه حكمة كوَّنها من خلال جدِّيته في التعامُل مع الحياة. ولذلك يمكن القول إن علماء الشريعة والتاريخ والإنسان (الأنثروبولوجيا) هم أقرب من غيرهم إلى فهم الواقع، بما يمرُّ به هذا الواقع من فتنٍ ومحن.

وفي الجانب الآخر تحكم على شخص بالسطحية، وضيق الأفق، وقصر النظر؛ لأنه لم يطوِّر ملكةً لديه بالاطلاع والممارسة والخبرة. وهذا الأخير لا ينتظر منه أن يكون صاحب رأي، ذلك الرأي الذي قالت عنه العرب: إنه فوق شجاعة الشُجعان.

ونحن، دائمًا، بحاجة إلى الرأي، إلا أننا قد لا نوفَّق، أحيانًا، في توجُّهنا إلى الأشخاص الذين نطلب منهم الرأي، في أيِّ مسألة من المسائل المهمَّة، التي ننوي اتِّخاذ قرار حيالها. ولقد مرَّت على

obeikandl.com

المرء مواقفُ كثيرة سأل فيها رأيًا، فجاءه رأي بدا عليه الصواب، وجاءه رأي ظهر عليه الخطأ والخلل والخطل، ذلك أن مَن أبداه ليس صاحبَ رأي، ولا يعاتَب على ذلك؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه. وإنما العتب على من سأله الرأي.

وليس الرأي الصائب مربوطًا، بالضرورة، في سعة الاطِّلاع على التراث، ولكن سعة الاطِّلاع على التراث، وعلى الواقع، هي من مكوِّنات الرأي الصائب. ولدينا من العامّة من لم يطَّلعوا على تراث، ولم يوفَّقوا في القدرة على ذلك، ولكنهم مع هذا أصحاب رأي، ورأيهم في الغالب أقرب إلى الصواب. والذي يقود إلى الربط بين الرأي الصائب وسعة الاطلاع على التراث هو أن هذا التراث جملةٌ من التجارب والخبرات والمعاناة والمعايشة، تراها نُقلت إلينا عبر العصور، ومن خلال الكلمة، التي كوَّنت كلَّ هذا التراث المطبوع، الذي لا يزال مخطوطًا. وبناءً على ذلك فقلَّة الاطِّلاع في التراث، بتجاربه وخبراته ومعاناته، مدعاة إلى عدم اكتمال الصواب في الرأي، فيلجأ الواحد منَّا إلى غير ذي رأي، فيأخذ بما عنده وهو مجانبٌ للصواب، فيقع الخلل.

وعليه، فإن هناك من يبحث عن الرأي، وهناك من لا يملك القدرة على إسداء الرأي، لو سئل عنه. ويبدو ذلك واضحًا من أوَّل وهلة لمن أعطاه الله تعالى القدرة على التمييز. ولعل هذا من مسوِّغات الدعاء للمسؤول بأن يرزقه الله تعالى البطانة الصالحة،

التي تدلُّه على الخير، وترشده إليه، وتبعد عنه الشر، وتبيِّنه له. ومن صلاح البطانة أن تكون صاحبة رأي، المسؤول بحاجة إليه.

كثير منَّا مَن يعتقد، غالبًا، أنه على صواب، فيما يذهب إليه من رأي أو سلوك. وقليل منَّا من يعرف أنه على خطأ في رأيه، أو في سلوكه. والمغالطون منَّا هم أولئك الذين يعلمون الخطأ، ويقعون فيه، ولكنهم لا يعترفون أنهم واقعون فيه، وكل منَّا يقع في الخطأ، وقليل منَّا مَن يصرُّ عليه، إذا تبيَّن له أنه خطأ. وهذا القليل هو الذي تأخذه العزَّة بالإثم، فيسعى إلى تخطئة ما هو صواب، في سبيل أن يصوِّب ما هو عليه من خطأ. ومرة أخرى تجد المطِّلعين من الناس، ومنهم العلماءُ، يختلفون في الرأي، بناء على اختلافهم في الفهم، فيظل ما يرونه رأيًا يقبل الخطأ، مع اعتقادهم أنه صواب، فلا يصرُّون عليه، إذا تبيَّن لهم خلاف ذلك. ومن عباراتنا التي ورثناها عن علمائنا أن رأيَنا صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيرنا، في المسألة نفسِها، خطأ يحتمل الصواب. وهذه العبارة، التي تؤثر عن الإمام **الشافعي** – رحمه الله تعالى – تدلُّ بوضوح على سعة الأفق، وبُعد النظر في الرأي، كما مرَّ بيانُه.

ومن هذا المنطلق، نجد أننا أمام جملة من الاختلافات، القابلة في عمومها للاستيعاب، بناء على السعة في الساحة، والسعة في فهم الواقع. وليس من المتوقَّع أن نضيق بهذه الاختلافات، لاسِيَّما إذا تأكَّد لدينا أنها، جميعَها، قائمةٌ على قدرٍ عالٍ من الاجتهاد في الرأي، والاجتهاد في الرأي لا ينبع من فراغ، ولكنه يتكوَّن بعد أن

تتكوَّنَ مقوِّماتُه، وكلٌّ يؤخذ من كلامه ويردُّ، إلا المعصومين من أنبياء الله ورسله، عليهم صلاة الله وسلامه.[(١)]

واقعنا العامّ، اليوم، أننا نضيق بالاختلاف، وإن آمنَّا به، نظريًا، لكنه عند التطبيق تجد أننا نرغب في تبنِّي رأي واحد، وهذا وارد، لكننا مع هذا، ومع تبنِّينا لرأي واحد، قائم على القناعة نريد من الآخرين أن يتبنَّوه هو على أنه صواب، لا يحتمل الخطأ، وهذا يتعارض مع النهج الإسلامي، في النظر إلى الآراء الأخرى. وقليل منَّا من يقابل هذا القول بالقبول، مع سعة في الصدر، وتلمُّس العذر للآخرين، وهذا هو ديدن العلماء العارفين، من علماء الشرع، وغيرهم من العلماء، في علوم الدنيا والآخرة.

--- --- ---

(١) يؤثر مضمون هذا القول عن عبدالله بن عباس – رضي الله تعالى عنهما –، ونقلها عنه مجاهد – رحمه الله تعالى –، ونقلها عن مجاهد الإمام مالك بن أنس – رحمه الله تعالى –، ونقلها عن مالك الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله تعالى –. انظر: محمَّد ناصر الدين الألباني. **صفة صلاة النبي ﷺ من التكبير إلى التسليم، كأنك تراها**. – ط ١٣. – بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م. – ص ٢٦ – ٢٧.

الوقفة الرابعة: الودُّ:

ما دام الشيء بالشيء يُذكر فقد قيل: إن الاختلاف في الرأي لا يفسد للودِّ قضية. وهذا هو الحقُّ، ولكن هناك من أصحابنا الكُتَّاب من لا يرون صواب هذه العبارة. إذ إن الاختلاف في الرأي لدى هذه الفئة من عباد اللّٰه يمزِّق أواصر الودِّ والقربى. وهذا، وإن طُرح على أنه معبِّر عن عدم الارتياح أو التضجُّر، إلا أنه ينبئ عن الضيق في مقابلة الآراء الأخرى المعتبرة، وليس بالضرورة كل الآراء المطروحة على الساحة، وبالتالي فإنه سيضيق بالنقد، ويتضايق من الأخذ والردِّ في مسائلَ جوهريةٍ، الأمَّة بحاجة إلى طرحها، وسماع الآراء المعتبرة حولها.

على أن هناك فئةً من الناس ترغب في الاختلاف، وتسعى إليه، ولها في ذلك أهداف قريبة وشخصية. ولا اعتبار لهذه الفئة، مع أنها موجودة، وإنما الاعتبار لأصحاب الاختلاف، الذين يسعون إلى الوصول إلى الحقِّ، فتراهم يلتقون فيه متى ما وصلوا إليه، وينبذون اختلافاتهم وراء ظهورهم.

وقد قيل من قبلُ: رحم اللّٰه امرءًا أهدى إليَّ عيوبي. وهذه مقولة جميلة، مبنيَّة على الرغبة في تقويم الذات. وتكتنف في طيَّاتها اعترافًا واضحًا أن في المرء عيوبًا، تحتاج إلى الكشف، وقد لا يراها صاحبُها واضحةً فيه، وقد يحسُّ بها، ولكنه لا يرغب في مواجهتها، إلا أن يواجَه بها من الآخرين الناصحين المخلصين. ولذا

يُقال: إن المسلم مرآة أخيه المسلم، يرى نفسه في أخيه، بما يبديه له من نقد، ليس بالضرورة تركيزًا على العيوب. فالنقد الذي فهمناه، علميًا، لا يقتصر على إبداء العيوب، بل ربَّما طُلب من الناقد أن يبدي المحاسن قبل المثالب، إلا أنه شاع، شعبيًا بيننا، أن النقد يعني إظهار السوءات والمساوئ، بل والتجريح، أحيانًا، وليس هذا من النقد، لاسيَّما إذا جاء من ساخط، يرى كلَّ شيء سيئًا، وينسى الحَسَنَ، مهما كان طاغيًا على السيئ.

والنفس البشرية تضيق بهذا النوع من التجريح، الذي يسمِّيه بعضنا نقدًا، وليس لها أن تضيق من النقد العلمي، الصادر من شخص متجرِّد عن كل هوى، ويسعى إلى المصلحة. وفي الحديث الشريف أن الدين النصيحة.[1] ولعل النصيحة شكلٌ من أشكال النقد؛ لأن فيها إهداءً لعيوب، ظاهرة لدى المنصوح. ولذلك وضع علماء الأمَّة ضوابط للنصيحة، أو النقد في أحد مضامينها، ومن هذه الآداب ذكرُ المحاسن، قبل الدخول في ذكر المثالب. ولتكُن هذه المحاسن موضوعية، لا ذاتية.

وهناك من يقول إن الناس يضيقون بالنقد، وإن ضيقهم هذا ناتج عن محاولاتهم لإخفاء التقصير الحاصل منهم. ومع هذا القول،

---

(١) قال ﷺ: «الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامَّتهم". رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين. ورواه مسلم بزيادة: «قلنا: لمن؟»، في كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة. حديث رقم ٨٢.

الذي لا يخلو من الصحة عند بعض الناس، إلا أن الضيق يأتي أحيانًا من الأسلوب في الطرح، لا من الفكرة نفسها المراد طرحها، وأن بعض الناقدين، وليس النقَّاد، يعلمون شيئًا، وتغيب عنهم أشياء. وعليهم التثبُّت من المعلومة التي تصل إليهم عن طريق غير ثابت، قبل إن يبنوا عليها حكمًا سابقًا. وهذا، مع الأسف، هو ديدن رهطٍ من المتعجِّلين في إطلاق الأحكام، لاسِيَّما أولئك الذي يهمُّهم تتبُّع العورات، وتلمُّس جوانب التقصير في الآخرين، رغبة في شهرة عامَّة، أو خاصَّة، أو رغبة في إشباع الفضول، أو رغبة في إشعار الآخرين بالعلم العريض، ولكنه خلاف ذلك.

نحن بحاجة ماسَّة إلى النقد، ولا يقال هذا نظريًا، ثم يواجَه الناقد بالتبرُّم، ولذا، فإننا بحاجة ملحَّة إلى التعوُّد، والتعويد على النقد، قبل إن نوغل في النقد ذاته. وبالتالي، فإننا بحاجة كذلك إلى أن نتوقَّف عند المفهومات والمصطلحات، كما ذكرت من قبل في هذه الوقفات، ومن ذلك مصطلح النقد ومفهومه.

--- --- ---

obeikandi.com

الوقفة الخامسة: الإخلاص

مما يوحي بضرورة قبول النقد ما يؤثر عن علمائنا من أن كلَّ مجهود، بشري فردي أو جماعي، يُبتغى فيه وجهُ الله تعالى، يحتاج إلى عاملين مهمَّين، يرعيان أيَّ عمل يراد له التوفيق والقبول. وهذان العاملان المهمَّان هما: الإخلاص والصواب (المتابعة). ويُنتظر من أي شخص يشرع في التفكير بأي عمل من الأعمال أن يراعي توافر هذين العاملين، سواءً بسواء، ثم بعد ذلك يبدأ في التخطيط والتنظيم، واتِّخاذ ما يراه في تحقيق هذا المشروع. وهذا يعني أن هناك أعمالاً فرديةً، أو جماعيةً، مخلصةً، ولكنها تفتقر إلى الصواب. وهذا كثير في ساحتنا العربية والإسلامية. ومردُّ ذلك إلى الافتقار إلى العلم، الذي يقود إلى الصواب.

ولذا، ولفقدان هذا العامل: الصواب، تتعرَّض بعض الجهود المخلصة إلى الفشل، بل إلى الوقوع في أخطاء تراكميَّة، ينبني بعضها على بعض، فيكثر التخبُّط، ويتأخَّر الوصول إلى الأهداف، التي انطلق لها أيُّ مشروع، بل ربَّما لم يُتوصَّل إلى الأهداف؛ لأن لها خطًّا واحدًا، يتطلَّب توخِّي الصواب. والبعد عن الصواب يبعد عن الوصول إلى الأهداف. وهذا يعني أن هناك أعمالاً فرديةً، أو جماعيةً، صائبة، ولكنها تصدر من أناس غير مخلصين، وبالتالي تُنتَزع منها البركة.

والإخلاص له علاقة مباشرة بالنيات، ولذا فمن الصعب، جدًّا، الحكم الواضح على عمل عاملٍ أنه ليس مخلصًا، كما أن له علاقةً مباشرةً بما يريد العامل أن يصل إليه من أهداف. والأهداف هنا، في حالة فقدان الإخلاص، تكون، عادة، مختلفةً عن الأهداف المعلنة، إذ إن غير المخلص، وإن كان صائبًا، يُعلن على الملأ أهدافًا، ولكنه يريد تحقيق أخرى غير معلنة.

وربَّما يصدق هذا العامل على فئات غير منتمية، مثل بعض من المستشرقين، الذين تتَّسم بعضُ أعمالهم بالصواب، ولكنها تفتقر إلى الإخلاص للأفكار التي يدرسونها، ويدخل معهم بعض الرحَّالة الغربيين إلى الشرق. وكذا طائفة من المنصِّرين، الذين يلجأون إلى التنصير غير الصريح، أو الخفي أو المختفي، وراء التطبيب، أو التعليم، أو التدريب، أو الإغاثة، أو التنمية أو غيرها، فأعمال هؤلاء صواب في الغالب، ولكنها لا تصدر عن إخلاص لمن هي موجَّهة إليهم، وإن كان فيها إخلاص لمفهوم التنصير نفسه، ولكننا نقيس الإخلاص، هنا، من منطلقنا نحن، فيما يعود علينا نحن بالفائدة.

ولذا فإننا، نحن المسلمين، ندعو الله تعالى أن يُلهِمَنا الصواب، ويرزقنا الإخلاص في أعمالنا. فإذا أخلصنا النيَّة في العمل، ولم يتحقَّق الصواب؛ لأسباب خارجة عن الإرادة، فإن العامل منا ينالُ أجرًا لهذا الإخلاص. وإذا ما تحقَّق الصواب نال العامل منا أجرين. وتأتي هذه الفكرة من النظرة إلى المجتهد في

أداء العمل، فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد. والأصل في الاجتهاد الإخلاص، وليس، بالضرورة، الصواب. ولم يقل علماؤنا، ولا فقهاؤنا، أن من أصاب، ولم يخلص، فله أجران، وأن من لم يصب، ولم يخلص، فله أجر واحد!

--- --- ---

obeikandi.com

الوقفة السادسة: الحزبية

مما تعاني منه الأمَّة الإسلاميةُ، اليومَ، ظهورُ الحزبيَّة بين أبنائها، ذلك أنه مع تعدُّد التوجُّهات والاتجاهات الفكرية ظهرت بعض النظرات البشرية، التي فهمت الإسلام على طريقتها، ورتَّبت الأولويَّات على حسب ما تراءى لها، بحكم محدوديتها في النظرة، أو التطويع لبيئة ضيِّقة، إلا أن هذا الضيق قد اتَّسع، وصار له أعوان وأتباع، وتبنَّاه آخرون من بيئات إسلامية أخرى، حيث جرى تصدير هذه الأفكار البشرية المنطلقة، دون شك، من المفهوم العامّ للدين.

والمتابع لهذه الحزبيات أنها تتشتَّت، هي ذاتها، إلى حزبيات صغيرة، ثم تكبُر، بحيث تجد داخل الحزب الواحد جملةً من التوجُّهات، التي تتطوَّر لتصبح حزبيات فرعية، داخل الحزب الواحد، ثم تتطوَّر الفروع إلى أصول مستقلَّة عن أصلها الأوَّل، تفترق معه، وربَّما تناصبه العداء، وتبدأ في الكيد له. وهكذا يزداد الانشطار في جسم الأمَّة. وعدم تحقُّق الشرط الثاني في العمل، وهو الصواب، يجرُّ إلى السؤال حول منطلق هذا العمل أو ذاك، بحيث يعين على الحكم على الشرط الأوَّل وهو الإخلاص، لأن القاعدة الإلهية أن الإخلاص يؤدِّي غالبًا إلى الوصول إلى نتائج حسنة، أو إيجابية. وهذا الأمر ليس، بالضرورة، منطبقًا على جميع التحزُّبات، بحيث تُتَّهمُ في نيَّاتها، ولكنها أتاحت المجال لحزبيات

أخرى، قد تكون غير صادقة في نيَّاتها، والله تعالى أعلم، لتنفذ إلى جسم الأمَّة.(١)

ومن المشكلات التي تعانيها الأمَّة من الحزبية هذا التحوُّل التدريجي، وغير المعلن، في الولاء إلى الحزبية، دون شعور واضح لدى أصحاب هذا التحوُّل، ودون إقرار منهم، بل ربَّما دون مناقشة لهذا، ما داموا يرون أن حزبهم هو المحقّ، وغيره من الأحزاب الأخرى على الباطل، وإذا ما اختلَّ مبدأ الولاء والبراء عند الشخص فإن المشكلة تكون، عندئذٍ، عويصة.(٢)

ومن المشكلات التي تعانيها الأمَّة من الحزبية أن هذه الأحزاب تمارس أعمالا تفيد الآخر، ممن لا يتَّفقون مع توجُّهات الأمَّة، الذين لم يكونوا يتوقَّعون أن تمارس بالنيابة عنهم. وهذا ينبغي التوكيد فيه على أن هذه الأحزاب لا تقصد هذا، ولا تقرُّه،

---

(١) انظر: التحرُّر من إطار الحزبية والنخبوية الضيِّقة. — ص ١٨٤ — ١٨٩.
في: صلاح الدين أرقه دان. **التخلُّف السياسي في الفكر الإسلامي المعاصر**. — بيروت: دار النفائس، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م. — ٢٥٦ ص.

(٢) الولاء والبراء مفهوم شرعي، ذو صلةٍ بعقيدة المسلم في علاقته مع الآخر. وهناك جدلٌ قائمٌ حول معناه ومبناه. كما أن هناك تفسيرات قد يظهر عليها التشدُّد، وأخرى قد يظهر عليها التسامُح في التعامل مع الآخر، لاسيما مع ألئك الذين هم ليسوا في حالة حرب مع المسلمين. وهذا ما يأخذُ به هذا الكتاب. انظر في مناقشة هذا المفهوم: محمد بن سعيد بن سالم القحطاني. **الولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف**. — الرياض: دار طيبة، ١٤٠٥/١٩٨٥. — ٤٧٦ ص.

obeikandl.com

ولا تهدُف إليه، عندما كوَّنت نفسها، ولكنها، في المحصِّلة النهائية، تخدُم أهداف الآخر، وتنوب عنهم في العمل على تأخير الأمَّة، وانشغالها بنفسها، وإلهائها، في حوارات جانبية داخلية، تصل إلى قيام فرقة وتفكُّك في جسد الأمَّة الواحدة.

الذي يظهر، الآن، أن الحزبية لم تأتِ للأمة بخير، ولن تأتيَ لها بخير، وأن السعيد الذي لا يستسلم لهذه المستجدَّات غير الطيبة، وغير المرغوب فيها، التي طرأت على الأمَّة الواحدة. والسعادة هذه لا تكون مقصورةً على هذه الحياة، بل إن في هذا الابتعاد سعادةً في الدارين.

ومما يدخل في هذا، مما هو قريب منه، رفضُنا، نحن المسلمين، تصنيف الإسلام إلى جملة من الإسلامات، كالإسلام السياسي،[١] مثلا، أو الإسلام الاقتصادي، أو الإسلام الاجتماعي، أو الإسلام التقليدي أوالسلفي، والإسلام الحديث أو الليبرالي، والإسلام الشعبي، والإسلام الرسمي، والإسلام المتطرِّف أو العسكري،[٢] والإسلام المعتدل، والإسلام البسيط، والإسلام المعقَّد، أو المركَّب. فالإسلام هو الإسلام، لا يقبل النعت الذي

---

(١) انظر في محاولة استبعاد البعد السياسي في الإسلام: عبدالوهَّاب المؤدَّب. **أوهام الإسلام السياسي**. — بيروت: دار النهار، ٢٠٠٢م. — ٢٣١ ص.

(٢) انظر: راي تاكيه ونيكولاس غفوسديف. **نشوء الإسلام السياسي الراديكالي وانهياره**. — بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٥م. — ٢٧٩ ص.

يجرُّ إلى التصنيف، وجعْل المسلمين فئات وطوائف، بحسب فهمهم للإسلام، وبحسب قدراتهم على تطبيق الإسلام.

ولا يقبل المسلمون، كذلك، النظرية الاجتماعية، التي يمكن أن تُعزى إلى علم الاجتماع الديني، والتي مؤدَّاها أن الدين، في أصوله، لا في الجوانب الفرعية منه، هو القدر الذي يمكن قياسه، من خلال ممارسات الناس له، في مكان محدَّد، وفي زمان محدَّد، كذلك، مما يعني معه أن يكون هناك أكثر من إسلام في زمان واحد، ولكن في أماكن متعدِّدة، وأن يكون هناك أكثر من إسلام في مكان واحد، ولكن في أزمنة متعدِّدة، بحسب تطبيق الناس، وبالقدر الذي تمارَس فيه شعائر الدين.(١)

وهذا يوحي، مما يوحي به، قبول تفتيت الإسلام إلى إسلامات، وأخذ المناسب منه، بحسب تقديرات البشر، وتطويعه كذلك إلى البيئات الاجتماعية، الأمر الذي يتعارض مع اعتقادنا لشمولية الإسلام، وقابليته للتطبيق في كل مكان وزمان، كما هو دين الله تعالى الذي ارتضاه لعباده. وشموليَّته تعني أن فيه سياسةً، واقتصادًا، واجتماعًا، وغيرها من مقوِّمات الحياة، التي اشتمل عليها هذا الدين، دون أن ينعت، لغويًّا، بالضرورة، بأيٍّ

---

(١) انظر: الإسلام منهج متكامل، إذا أحسنَّا تطبيقه. — ص: ٢١٠ — ٢١٤.
في: صلاح الدين أرقه دان. **التخلُّف السياسي في الفكر الإسلامي المعاصر**. — مرجع سابق. — ٢٥٦ ص.

منها،[١] من منطلق حصره على أيٍّ منها، مع أن المصطلح اللغوي العربي للبعد السياسي في الإسلام هو: السياسة الشرعية.

ويتَّضح هذا، جليًّا، عند الحديث عن الحركات الإسلامية التي غلَّبت البعد السياسي على الأبعاد الأخرى للإسلام، ممَّا أدَّى إلى إيجاد مصطلح: الإسلام السياسي.[٢] وربّما قيل: إن هذا غدا مصطلحًا، ولا مُشاحة في الاصطلاح. وهذا صحيح لغويًّا، إلا أنه غدا له مدلول، أو مفهوم، يوحي بحصر الدين في بُعد واحد، ربَّما على حساب الأبعاد الأخرى للدين، وماذا يضير لو استخدم المصطلح الأسلم، وهو السياسة الشرعية، أو استخدم العطف: الإسلام والسياسة، مثلاً، بدلاً من النعت.[٣]

--- --- ---

(١) انظر، مثلاً: فوَّاز جرجس. **أمريكا والإسلام السياسي: صراع الحضارات أم صراع المصالح؟**. — ترجمة: غسَّان غصن. — بيروت: دار النهار، ١٩٩٨م. — ٣٦٢ ص.

(٢) انظر، مثلاً: محمَّد علي الكبسي. **نشأة الفكر السياسي عند العرب: حفريَّات في مسلَّمات الفكر العربي**. — دمشق: دار الفكر، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م. — ٣٦٨ ص. وبرهان غليون ومحمَّد سليم العوَّا. **النظام السياسي في الإسلام**. — دمشق: دار الفكر، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م. — ٣١٢ ص. — (سلسلة حوارات لقرن جديد). ومحمَّد عبدالقادر أبو فارس. **النظام السياسي في الإسلام**. — ط ٣. — عمَّان: دار الفرقان، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م. — ٣٧٥ ص.

(٣) انظر: عبدالإله بلقزيز. **الإسلام والسياسة: دور الحركة الإسلامية في صوغ المجال السياسي**. — الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠١م. — ٢١٨ ص.

obeikandl.com

الوقفة السابعة: التصنيف

ممَّا رُزِئت به الأمَّة، اليوم، تصنيف الأشخاص، من حيث انتماءاتُهم، بحيث لا يسلمُ شخص من أن يُعزى إلى توجُّه من التوجُّهات، التي نجزم أنها دخيلة على المجتمع المسلم، ولَّدتها الأفكار التي غزت المسلمين، نتيجة لبحث كثير منهم عن بديل أنسب، في نظرهم، من الإسلام.[١] ولمَّا لم يجدوا البديل المناسب عادوا إلى الدين، ولكنهم لم يستطيعوا التخلُّص من الأفكار التي ورثوها، نتيجة انتماءاتهم السابقة لها، فأسقطوا هذه الأفكار الباقية على توجُّههم الجديد، الذي لم يكن جديدًا، بل هو كان توجُّههم الأوَّل، الذي نشأوا عليه، منذ نعومة أظفارهم، لكنهم لم يأخذوه بجدِّية. وربَّما أنهم نظروا إليه على أنه مجموعة من التكليفات، التي حاولوا عدم التقيُّد بها، ثم تحوَّلت النظرة إلى محاولة التنصُّل منها، بالبحث عن البدائل التي يخفُّ فيها، عندهم، حجم التكليفات.[٢]

---

(١) انظر: بكر بن عبدالله أبو زيد. **تصنيف الناس بين الظَّن واليقين**. — مرجع سابق. — ٩٨ ص.

(٢) انظر، مثلاً: كامل سعفان. **إنهم يكرهون الإسلام: هجمة علمانية جديدة ومحاكمة النص القرآني، محمد خلف الله ١٩٤٧ — نصر أبو زيد ١٩٩٣م**. — القاهرة: دار الفضيلة، ١٩٩٤م. — ٢٢٤ ص. وانظر، أيضًا: يوسف القرضاوي. **الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه: ردٌّ علميٌّ على د. فؤاد زكريًا وجماعة من العلمانيين**. — القاهرة: دار الصحوة، ١٩٨٧م/ ١٤٠٨هـ. — ٢٤٠ ص.

obeikandl.com

هذا في الوقت الذي تطلَّع العالمُ فيه إلى إيجاد صيغة جديدة في التعامُل مع الحياة، غير متقيِّدة بالأحكام الربَّانية، وغير خاضعة لما توارثه الناس، فكانت النظم الاقتصادية والفكرية والسياسية من رأسمالية، إلى اشتراكية شيوعية، إلى عِلمانية وغيرها. وقد ولَّد هذا لدى بعض الناس بداياتِ التصنيف، من حيث التوجُّه، إما لليمين، أو لليسار، أو للوسط، فأصبح الشخص يساريًا، أو يمينيًا، أو وسطًا، وداخل اليسار واليمين والوسط توجُّهات فرعية.

وانعكست هذه على أفكار أولئك الذين فضَّلوا العودة إلى الدين، عندما لم يجدوا جدوى من هذه الأفكار، ولكنهم حملوا معهم هذا التصنيف، فأصبحنا نسمع أن هناك شخصًا إسلاميًا يساريًا، وإسلاميًا يمينيًا، وإسلاميًا وسطًا، بما تكتنفه هذه التصنيفات من توجُّهات فرعية.

وهذا التصنيف حادث، ولم يكن مشهورًا من قبل، حتى أن لفظ إسلامي لم تكن شائعةً في إطلاقها على الأشخاص، فالكل مسلمون، وبينهم من هم يتَّجهون اتِّجاهاتٍ توحي بالتصنيف، ولكنهم لم يصنَّفوا، ولم ينظر إليهم إلا على أنهم أشخاص مسلمون، يعبِّرون عن أنفسهم، ولا يعبِّرون عن توجُّهٍ من التوجُّهات، سواء أكانت توجُّهاتٍ منظَّمةً أم غيرَ منظَّمةٍ.

وكان من بين المسلمين من يغلو في دينه، وبينهم من يفرِّط في بعض الأحكام، التي لا تخرجه عن الإسلام، فلم يحدث لهؤلاء أن

obeikandl.com

أُدخلوا في أي تصنيف، يوحي بالانتماء الفكري، أو الثقافي. وكان من بين المسلمين من كانت لهم مواقف، من حيث نظرتُهم للعقيدة الإسلامية، فأبرزوا أفكارهم، وتبعهم فيها آخرون، ولكنهم، في الغالب، لم يستمرُّوا على هذه المواقف، أو أن مواقفهم لم تستمرّ، فيما عدا الموقف الذي يقدِّم العقل على النقل، مثل منهج الاعتزال، الذي لا يزال قائمًا، دون الخضوع إلى تصنيف دقيق، سوى أنه منهج غير مقبول، من حيث صفاءُ العقيدة وسلامتُها.

وبالإضافة إلى أن هذا التصنيف حادثٌ في فكر الأمَّة، فهو قد أثَّر في النظرة إلى المعلومات العلمية الواردة من الأشخاص، فيتوقَّف بعض المتلقِّين للمعلومات عند الأشخاص، قبل النظر إلى ما يصدر عنهم من علم. وبناء على الانتماء الفكري أصبحت المعلومات مقبولة، أو غير مقبولة، لا لذاتها، ولكن بالنظر إلى الأشخاص الذين أنتجوها، أو صدرت عنهم. مما يستدعي قبول معلومات غير صحيحة، وبالمقابل رفض معلومات صحيحة. وهذا خلل نتج عن هذا التصنيف للأشخاص.

ويبدو أن هذا التصنيف مشكلة فكرية ثقافية، تؤثِّر على نهضة الأمَّة العلمية والثقافية والفكرية، وتؤخِّر نموَّ هذه الأمَّة عندما تشتغل بهذه المشكلة، على حساب النظرة الموضوعية للمعلومات، قبل النظر إلى من وردت عنهم، وعلى حساب الوضوح في الرؤية والبحث عن الحكمة وإيصالها للآخرين، لأن الذين

obeikandi.com

يُنتظر منهم أن يوصِلوها مشغولون بمشكلة التصنيف، الذي أضحى مؤشرًا بارزًا في مسألة القبول والرفض. ولعل هذا التوجُّهَ مؤقَّت، يعود بعده الناس، معظم الناس، من المسلمين إلى الابتعاد عن التصنيف، والانتماءات الفكرية الدخيلة على الدين.

--- --- ---

obeikandl.com

الوقفة الثامنة: الهوى

عندما ذَكَر أحد المهتمِّين حديثًا في **صحيح البخاري**، ردَّ عليه مهتمٌّ آخر متحمِّسٍ لموضوع ما، قال هذا المتحمِّس: إن هذا الحديث ليس صحيحًا. فسأله الأوَّل: لماذا هو ليس صحيحًا؟ فكان الردُّ: إني لم أسمعْه من قبل!

وسأل أحدُ المسلمين في بلد غير مسلم أحدَ العاملين في المركز الإسلامي عن لحم "سرطان البحر"، هل يجوز أكله أم لا؟ أجاب صاحبُنا بأن لحم سرطان البحر لا يجوز أكله! وعندما سُئل: لماذا يحرِّم أكل لحم سرطان البحر؟ قال: لأني لا أحبُّه! هذان المثلان أنموذجان لما يقع فيه المسلمون في المجتمعات، التي يندر فيها العلماء، أو يصعُب الوصول إليهم. وهناك رغبة أكيدة في اتِّباع الإسلام بالقول والفعل، ولكن الخلل هنا يكمن في تصدِّي بعض المتحمِّسين للتشريع، حسب الأهواء والرغبات والميول، إلى درجة نفي حديث صحيح، ورد في **صحيح البخاري**، لمجرد عدم السماع به من قبل.

ولا يُستبعد أن هذا المهتمَّ لم يسمع ببعض الآيات القرآنية من قبل، رغم مروره عليها أكثر من مرَّة، ولكن إذا وردت، أو أُوردت، للاستشهاد على موضوع لا يرغب المتحمِّسُ فيه، نفى أن يكون قد سمع بها من قبل. وهو بحقٍّ لم يستوعب الآية في

مدلولاتها، وإن كان قد مرَّ عليها أكثرَ من مرَّة في قراءة أو تلاوة عابرة.

والدِّين، في أوامره ونواهيه، لا يؤخذ بالهوى والرأي، بل إن بعض علماء التفسير وبعض علماء الشريعة يحرِّمون القول بالآيات بالرأي. يقول **الحافظ عمادالدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير** في مقدمة **تفسير القرآن العظيم**: «... فأما تفسير القرآن بمجرَّد الرأي فحرام لما رواه محمَّد بن جرير – رحمه الله تعالى – حيث قال: حدَّثنا محمَّد بن بشَّار، حدَّثنا يحيى بن سعيد، حدَّثنا سفيان، حدَّثني عبدالأعلى... عن سعيد بن جبير عن ابن عبَّاس عن النبي ﷺ قال: «من قال في القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوَّأ مقعده من النار».[1]

وقد ابتعد الصحابة والتابعون عن القول في القرآن بالرأي. وفي حديث عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ».[2] وفي لفظ: «من قال في كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ».[3] وقد كان من خُلُق السلف وقوفُهم عند ما لا يعرفونه، ولا يدرون عنه شيئًا.

---

(١) عمادالدين أبو الفداء إسماعيل ابن كثير. **تفسير القرآن العظيم**. – ٤ مج. – بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م. – ١: ٥.

(٢) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يفسِّر القرآن برأيه. حديث رقم ٢٨٧٥، وقال عنه الترمذي: هذا حديث حسن.

(٣) رواه أبو داود والترمذي والنسائي.

ويكثُر هذا الأسلوب في النظر إلى الكتاب والسنة، وإلى الأحكام الشرعية، عند حديثي العهد بالإسلام، أو حديثي العهد بالاستقامة وبالالتزام بأحكام الإسلام، ممَّن يمكن أن يطلقَ عليهم المفكِّرون، الذين لا يعرفون كثيرًا كلمة: **لا أدري**، أو **لا أعلم**، فهم يظنون أنهم يمكن أن يجيبوا عن أيِّ سؤال، ولديهم رأي في أيِّ قضيَّة تُطرح. ويرون من الإهانة لمكانتهم الفكرية والثقافية أن يتوقَّفوا عن الإجابة عن مسألة، لا يدرون عنها شيئًا.

إن من الأخطاء التي تشيع في مجتمع المسلمين، اليوم، الترحيبَ غير العادي بالعائدين إلى الإسلام، أو المسلمين الجدد، من المفكِّرين والمثقَّفين، وإعطاءهم الهالة، التي تراهم معها يضعفون. وهم بشر يعتريهم الضعف، فإذا رأوا هذا الترحيب غيرَ العادي تشجَّعوا على الخوض فيما لا يعلمون. وإننا لا نتدخَّل، أبدًا، في نيَّات الناس، ولكننا قادرون على تتبُّع ما يخرج به الناس من آراء ونظريات، وكأن الدين أصبح مجرَّد آراء ونظريات، يلصق به ما لا يحتمله، ويدخل فيه ما لا يتناسب معه، وتفلسُف أحكامه، حتى تكونَ متعذِّرة على عامَّة الناس.

وهذا الدين الحنيف إنما جاء للناس كافَّةً، والرسول – عليه الصلاة والسلام – بُعث للناس كافَّةً، ولم يبعث للحكماء والفلاسفة، وأولئك الذين يتصنَّعون العمقَ، ويلوون أعناق النصوص، حتى يُقالَ عنهم إنهم يأتون بتفسير جديد للإسلام، لم تصل عقليَّات السلف إلى إدراكه. وكأنهم بهذا يرمون سلف هذه

الأمَّة بالسطحيَّة في فهمهم للدين، وكأنهم بهذا أيضًا يتوقَّعون تفسيرًا للإسلام، غير التفسير العلمي الذي مارسه الرسول ﷺ، ومارسه معه وبعده صحابته – عليهم رضوان الله تعالى – ومارسه معهم بعدُ التابعون، وتابعو التابعين، ومن تبعهم بإحسان.(١)

وأحكام الدين الإسلامي جاءت لتُطاع، وفي سبيل أن تطاع فقد جاءت بقدر المستطاع، ولم يأمر الله تعالى بأمر لا يقدر عليه البشر، ولم ينه عن أمر لا يستطيع الناس، على عمومهم، الانتهاء عنه. وإنه لحريٌّ بنا أن نأخذ الدين من هذه النظرة المبسَّطة، ولا نحمِّله ما لا يحتمل، ولا نتوقَّع أنه جاء بأكثر مما هو قابل للتطبيق في كل زمان ومكان.

ونتيجةً لعودة المسلمين إلى المعين الصافي، ظهرت في الأفق مجموعة من الثغور، داخل المجتمع الإسلامي وخارجه.(٢) فالثغور داخل المجتمع الإسلامي يمكن أن ينظر إليها من خلال المنافذ الآتية:

- الرغبة في توعية المجتمع المسلم دينيًا.
- الرغبة في التطبيق العملي لأحكام الإسلام، فيما يتعلَّق بالعبادات والمعاملات.

---

(١) انظر البحث المستفيض في هذا الموضوع لدى: عبدالرحمن بن زيد الزنيدي. **السلفية وقضايا العصر**. – الرياض: دار إشبيلية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م. – ٦٥٣ ص.

(٢) انظر: يوسف القرضاوي. **من أجل صحوة راشدة تجدِّد الدين وتنهض بالدنيا**. – القاهرة: دار الشروق، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م. – ١٨٠ ص.

obeikandi.com

• الرغبة في تنقية عقيدة المسلم، مما علِق بها من أوهام وبدع وخرافات.

• الرغبة في تطويع الحياة كلِّها للإسلام، لا تطويع الإسلام للحياة.

• الرغبة في الاستقلالية السياسية، والتعامل مع الآخر من منظور إسلامي.

• التقليص من النظرة إلى الإسلام، نظرةً فكريةً فلسفيةً محضة.. وغيرها.

أما الثغرات خارج المجتمع الإسلامي فيمكن أن ينظر إليها من خلال المنافذ الآتية:

• الخوف من العودة إلى الإسلام، أي الخوف من الصحوة، ونعت أصحابها بالتطرُّف والأصولية والإرهاب.[١]

• الخوف من انتشار الإسلام، على حساب المعتقدات السائدة الأخرى.[٢]

• الخوف من سيطرة المسلمين على الاقتصاد العالمي.

---

(١) علي الجوهري. **الإسلام والعالم: هل الإسلام هو الخطر الأخضر؟ مقدِّمة عتاد الجهاد لأحمد ديدات**. — القاهرة: دار البشير، (١٩٩٣م). — ١٣٦ ص.

(٢) انظر: محمود الشاذلي. **الوثيقة: الإسلام الخطر، نص الخطاب الذي ألقاه و. هـ. ت. جايردنر في مؤتمر أدنبرة للتبشير (التنصير) الدولي المنعقد بالقاهرة عشية السبت ١٨ يونيه ١٩١٠**. — القاهرة: المختار الإسلامي، (١٩٨٥م). — ٣٦ + ١٤ ص.

- الخوف من زوال التبعية السياسية للغير، في بعض مجتمعات المسلمين.
- الخوف من النظام الإسلامي، في الاجتماع والتجارة والاقتصاد، والتعامل مع الآخر.
- الخوف على الجاليات غير المسلمة في المجتمع الإسلامي... وغيرها.

وإزاء تعدُّد هذه الثغور نجد أن جملة من بني الإسلام يهبُّون في محاولات لسدِّها، جميعها، أو بعضها. والذي يبدو، أن سدَّ الثغور جميعها ليس ممكنًا لفرد واحد، ولا لأفراد مجتمعين، ولكن جهود الأمَّة كلِّها ممكنة في سدِّها. وعليه فإن هناك أشخاصًا يُرهقون أنفسهم في التنقُّل من ثغر إلى ثغر، ومن مجال إلى آخر. فتجد الواحد منهم مشغول بالكثير، ولكنه يقدِّم القليل؛ لأن جهوده مشتَّتةٌ، وأفكاره مشغولة، بما قد يؤدِّي إلى الخلط في الأوَّليَّات. فترى المهتمَّ منهم مرَّةً هنا، ثم يقفز فجأة لثغر آخر، ثم يلقى منها عنتًا، فيقفز لثغر ثالث ورابع، فيعود إلى الأوَّل أو الثالث أو الثاني، أو يستجدُّ لديه ثغرٌ آخر، وهكذا.

والإلمام بحاجات المسلمين ومشكلاتهم مطلبٌ، لكن العمل لجميع المسلمين واقعيًا قد يكون متعذِّرًا على الأفراد. وعليه، فلا بُدَّ من التخصُّص والاختصاص. فيتخصَّص فرد أو مجموعة في سدِّ ثغر واحد، فيدرسونه ويتابعونه، ويحلِّلون ظروفه، وما يحيط به من

عوائـق وصـعاب، ويتحـدَّثون عنـه، يحاضـرون، أو يخطبـون، أو يكتبون عنه، وهكذا. وهـذه النظـرة قريبـة جدًا مـن إعمـال العقـل في سدِّ الثغور، بدلا من القفز العاطفي هنا وهناك.

--- --- ---

obeikandl.com

الوقفة التاسعة: الثغور

التعاطُف مع قضايا المسلمين أمر طيِّب ومطلوب، ولكنْ ينبغي ألا تكون العاطفة هي المسيِّرة للدعاة والعاملين في مجال تنمية الوجود الإسلامي في المجتمعات؛ لأن ما يبنى على العاطفة يكون في البداية مندفعًا، ثم لا يلبث أن يخبو. كما أن المؤمَّل ألاَّ تكون قضايا المسلمين حقولَ تجارب للعاملين في حلِّها. وهذا المحذور تُبطله الدراسات المتأنِّية، والرغبة في الوصول إلى حلول عملية، وإن طال بها الأمل والأمد. والبناء والتشييد يحتاج، على أيِّ حال، إلى الوقت.

ويمكن أن يتخصَّص مجموعة من العاملين في مجال الدعوة، في أن يكونوا رجال معلومات، مهمَّتهم جمع المعلومات عن قضية من القضايا. ويكفيهم هذا الجهد في توفير المعلومة للباحثين والدارسين الخارجين بقرارات وإستراتيجيات وحلول للقضايا، مبنية على معلومات حديثة ودقيقة. ويمكن أن يتخصَّص مجموعة من العاملين في مجال الدعوة، في أن يكونوا منفذِّين، يتلقُّون العلم عن العلماء المفكِّرين، ويقومون هم بترجمتها إلى واقع، ويسدُّ به ثغر من الثغور... وهكذا.

وصلاحية الإسلام لكل زمان ومكان تجعل منه دينًا لديه القابليَّة للتطبيق في أي حال من الأحوال. وتجعل لدى الآخر من بني آدم القابليَّة الفطرية على قبوله، وتبنِّي تشريعاته وأحكامه، التي

جاءت في الحدود التي يستطيعها البشر. ولذا لم يكلِّف اللّه تعالى نفسًا إلا وسعها: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ ... ﴿٢٨٦﴾ ﴾ (البقرة ٢٨٦). وهذا يعني أيضًا أن التكليفات في العبادات تتفاوت، من حيث مقدرةُ جميع الناس على تحقيقها، ولذا نجد لدى بعض الناس قدراتٍ ذاتيةً فُطِروا عليها، يطبِّقون، من خلالها، جوانب تعبُّدية يقدرون عليها.

ونجد آخرين عاجزين، بالفطرة، عن مجاراة غيرهم، في مسألة التطبيق. وقد جاء جماعة إلى رسول اللّه ﷺ يبدون عجزَهم عن القيام بمثل ما يقوم به غيرهم من الموسرين، الذين زادوا عليهم بالقدرة على الإنفاق، فقالوا للرسول ﷺ: «ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلُّون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدَّقون ولا نتصدّق».[1] فما كان من الرسول ﷺ إلا أن يفتح لهم مجالات أخرى، هم قادرون عليها، فيزيل عنهم – رضوان اللّه تعالى عنهم – الإحساس بالتقصير في عبادة اللّه تعالى.

وليس المسلم، وغير المسلم، بقاصرٍ، من حيث فطرتُه، على القيام بالتكليفات التي جاء بها الشرع، ولكنه هو يقصِّر في أداء هذه التكليفات. وإذا ما حصل قصور، غير إرادي، في ناحية،

(١) رواه البخاري في كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة. حديث رقم: ٧٩٨. ورواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، وبيان صفته. حديث رقم ٩٣٦.

obeikandi.com

سقط التكليف عن الفرد القاصر عن أداء التكليف، حسب وروده شرعًا. ولذا ينبغي التفريق بين القصور والتقصير؛ فالمرء لا يملك شيئًا تجاه القصور، إلا اتخاذ الأسباب في التغلُّب على هذا القصور، ويملك الشيء الكثير تجاه التقصير، بالتغلُّب على الشيطان والهوى والنفس. مع إدراك مسألة القابليَّة في القيام بما هو مجال للتكليف، إذ إن كلاًّ ميسَّر لما خلق له.

ومن هنا تأتي فكرة التركيز على مجال من مجالات العمل الإسلامي، واعتباره ثغرًا يتطلَّب السدَّ. ومن لا يستطيع سدَّ ثغرٍ وحده يستعين، بعد عون الله تعالى له، بمن يعينه على سدِّه، فإن لم يجد في نفسه القابليِّة أو الكفاية، فإنه يترك هذا المجال الذي لا يستطيعه إلى مجالات أخرى هو قادرٌ عليها، وقديمًا قال شاعرنا:

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئًا فَدَعْهُ وَجَاوِزْهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيْعُ

وهذا كلُّه إنما يصدق على المستحبَّات وفروض الكفاية، ولا يصدق بحال على فروض العين، التي لا يمكن للمكلَّف أن يترك شيئًا منها، بحجَّة أنه غير ميسَّر لها. أما المباحات والمستحبَّات وفروض الكفاية، فإنها تخضع لمفهوم القابليَّة، أرأيتم أن أحدًا من الناس قد لا يستطيع الجهاد بالنفس، على اعتبار إن الجهاد فرض كفاية، وأن أحدًا من الناس لا يستطيع الجهاد بالمال، مع أن الجهاد بالمال مقدَّم على الجهاد بالنفس، لكن من لا يملك المال لا يستطيع بذله في سبيل الله، ففاقد الشيء لا يعطيه. وهذا كلُّه

أيضًا يصدق في مجال الدعوة إلى الله تعالى، بالمفهوم الأشمل للدعوة إلى الله تعالى. فالذي لا يعلَم لا يستطيع أن يُعلِّم غيره. والذي لا يملك الرفق والحلم لا يملك أن يدعو، أو أن يأمر بمعروف، وينهى عن منكر، وهكذا.

ورحم الله امرءًا عرف قدر نفسه، ففتَح المجال لغيره في أمور، يرى أنه غير موفَّق في القيام بها، على الوجه المطلوب. ورحم الله امرءًا عرف قدر نفسه، فاتَّجه إلى أمور يرى أنه يؤدِّيها بصورة مؤثِّرة وفعَّالة، ويغني بعمله فيها عن تخبُّط بعضِ غير القادرين عليها. وما دام الله تعالى قد رضي هذا الإسلام دينًا للجميع، صار من الضروري قبولُه للتطبيق في كل زمان ومكان، على مستوى الأفراد والجماعات. وصار من الضروري على المؤمنين به كاملاً أن ينقلوه إلى الآخر كاملاً، وأن يتَّخذوا الوسائل والسبل المناسبة والمشروعة في تقديمه للغير.

وتزداد مسؤولية العلماء والدعاة والحكَّام في البلاد الإسلامية في هذا النقل والتقديم. وهي أكبر من مسؤولية عامَّة الناس، الذين قد يسيئون الوسيلة، أو قد يكونون محدودي المقدرة العلمية والسلطانية في النقل والتقديم. ومتى ما أُحسِن تقديمُ الإسلام ونقلُه إلى الآخر، تأكَّد قبول الآخر له، وتبنِّيه وتطبيقه على حياتهم الخاصّة والعامّة.

تُطرح هذه الفكرة، بعد ملاحظات على بعض الدعاة، ممَّن يُرون في كل واد يعملون، فيفقدون شيئًا كثيرًا من المتابعة،

والوصول إلى نتائج علمية في سدِّ الثغور. وتبقى هذه الثغور مفتوحةً، إن لم يزد مثل هذا السلوك في فتحها، مما يؤجِّل من وقوف الأمَّة على قدميها في وجه التحدِّيات التي تواجهها. ولا يتعارض مفهوم سدِّ الثغور مع تعدُّد المواهب عند البعض، فهذه المواهب المتعدِّدة تصبُّ في ثغر واحد.

--- --- ---

obeikandl.com

الوقفة العاشرة: التضييق

الأصل في الدين اليسر، ولم يأتِ الدينُ بعسرٍ، بل إن مع كلِّ عسر يسرين. ولم يشجِّع الدين على التشدُّد، فلن يشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه، هذا في الأصول من الدين، وعليه، فإن ذلك في الفروع من باب أولى، لاسِيَّما في السنن والنوافل. بل ربَّما قيل بترك بعض السنن، إذا كان الجوُّ العامّ سيقود إلى مفسدة، إذا ما أصرَّ المرء على فعلها، لاسِيَّما إذا كادت السنة أن تتحوَّل إلى فرض.

ويذكر أن أشخاصًا تناقشوا حول عدد تسليمات صلاة التراويح، أو عدد ركعاتها، فلم يصلوا إلى نتيجة، بل إن الأمر قادَهم إلى بذور الخلاف والشقاق، فاحتكموا إلى أحد العلماء، والعلماء، عادةً، يؤتون حكمةً، ومخارجَ عظيمةً من هذه المواقف وأمثالها، وعرضوا عليه خلافَهم، فكان جوابه أن نصحهم بعدم أداء صلاة التراويح جماعةً! ممَّا أثار فيهم الدهشة والاستغراب، ولكنه سوَّغ ذلك بأن صلاتهم على خلافٍ بينهم ستؤدِّي إلى تفرُّقهم، والفرقة بين المسلمين محرَّمة، حتى لو جاءت بسبب خلاف في عدد الركعات، في نافلة مهمَّة في حياة المسلمين.

وعلى مثل هذا يقاس تعمُّد الإسلامِ التوسُّعَ حتى في الأمور المفروضة، من أركان وواجبات وشروط، بحيث لا يكون هناك إخلال بها، بل ربَّما حصل الحرج في تأديتها على صيغة محدَّدة، والرسول **محمَّد بن عبدالله** ﷺ كان إذا سئل عن شيء من مناسك

الحج يقول: "افعل ولا حرج"، مع أنه قد يؤخذ على غير المتعلِّمين سوء استخدام هذه الرُّخص، ولكن المعوَّل عليه، هنا، هم العلماء الموثوق بهم، الذين يفقهون ما يقولون. يقول **سفيان الثوري** (إمام الحفَّاظ، الكوفي المجتهد، ت ١٢٦هـ/٧٤٣م): «إنَّما العلمُ عندنا الرُّخصةُ من ثقةٍ، فأمَّا التشديدُ فيُحسنه كلُّ أحد».[١]

وإذا كان بإمكان الفرد الواحد أن يتحرَّى الدقة المتناهية في تنفيذ سنن المصطفى ﷺ فإن هذا مطلبٌ للجميع، وذلك ليخرج من احتمال الوقوع في الانقياد إلى بعض الممارسات، التي أُلحقت بسنَّة المصطفى ﷺ، مع أنه لا أصلَ لها، أو أن ورودها جاء ضعيفًا جدًّا، ولم تثبت عن الرسول ﷺ. وهذا موقف علمي يدلُّ على الحرص الدقيق على التطبيق المناسب للسنة النبوية.

ومن العلمية، كذلك، أن يتذكَّر الفرد الواحد أن ما يمكن أن يقوم به، وحده، قد يتأثَّر نوعًا ما، إذا كان الباقون لم يقتنعوا بعدُ من الصورة التي تؤدَّى بها السنن. ومن العلمية، كذلك، أن يذكر الفرد الواحد الآراء الأخرى، حول الصورة التي تؤدَّى بها السنن، وإن كان لا يميل إليها، وليس مقتنعًا بها، بل إنه يرى صحة ما يميل إليه، وهذا له، لكنَّه لا يمنع من طرح الآراء الأخرى، ليرجِّح رأيه، أو ميله، هو بالحجَّة.

---

(١) ذكره النووي في: **المجموع**: (١: ٨٠)، والخطيب البغدادي في: **الفقيه والمتفقِّه**، و**الموسوعة الفقهية الكويتية**: (١٤: ٢٤٥).

obeikandi.com

وعلى أي حال، يظل التوجُّه العامّ في الإسلام يميل إلى التوسيع على الناس، ولا يؤيِّد، بحالٍ، التضييق في مجالات العبادات والمعاملات، شريطة ألاَّ يُساءَ استغلال استخدام هذا التوسيع، والحَكَم، هنا، هو النية، فالأعمال بالنيّات، والأَولى حسن استغلال هذه الميزة في دينٍ، كله يسر.

والأفراد الذين يميلون إلى التضييق على أنفسهم، وعلى الناس، إنما يُسهمون في الإساءة إلى الدين. وقد يعطون الانطباعة للآخرين، من المسلمين وغير المسلمين، بصعوبة التديُّن والإقبال على الإسلام. كما أن التهاون في هذا المجال، والمبالغة في استغلال الرخص قد يعطي الانطباعة المعاكسة، فليس في المسألة تنازُلات أو تجاوُزات، وإنما هي الرخص والتوسيع والتيسير، التي تفضي، كلُّها، إلى سماحة هذا الدين، وقابليَّته للتطبيق في كل مكان وزمان، الأمر الذي نعتقده جميعًا، ونسعى إلى توكيده في كل المناسبات.

واللجوء إلى الرخص ليس هدفًا، بل تدعو له الظروف والأحوال، ولم يُخيَّر قدوتنا المصطفى ﷺ بين أمرين إلا أختار أيسرهما.

--- --- ---

obeikandi.com

الوقفة الحادية عشرة: التصخُّر

من الناس من جعل الله صخرةً في جوفه اسمها القلب، ولكنها ليست كالقلب، بما نعلمه من القلب، بل هي صخرة، تزداد تصلُّبًا، يومًا بعد يوم، في مواجهة الأحداث الخاصّة والعامّة، بعيدة عن الرحمة والهُون والرفق، شديدة على أصحابها، شديدة على من حولهم. وفي رواية **قصة مدينتين لتشارلز ديكنز**، تدوس سنابك الخيل طفلاً لفلاَّح، فيحتجُّ الفلاَّح لدى النبيل، راكب عربة الخيل، وهو من علية القوم، النبلاء، بأن سنابك الخيل داست طفله، فيكون ردُّ هذا النبيل على الفلاَّح المكلوم: وهل أصاب الجيادَ سوء؟! ولعل تصخُّر القلوب هذا لا يقتصر على نماذج أو أفراد بأعيانهم، بل إن هناك ثقافاتٍ تصخَّرت قلوبها لبعض المنتمين إليها.

واليهودية من تلك الثقافات التي قامت على التمييز بين الناس. وهذا التمييز مطبَّق، إلى اليوم، لدى معظم أصحابها الأمميِّين أو الأغيار،[1] كما يسمِّيهم **إسرائيل شاحاك**، إنهم لا يسعفون أيَّ

---

(١) انظر: إسرائيل شاحاك. **الديانة اليهودية وتاريخ اليهود: وطأة ٣٠٠٠ عام**. – ط ٤/ ترجمة رضى سليمان، قدَّم له إدوارد سعيد. – بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٩٧م. – ١٨١ ص. وانظر أيضًا له: **أسرار مكشوفة: سياسات إسرائيل النووية والخارجية**/ ترجمة هشام عبدالله. – عمَّان: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م. – ٢٨٤ ص. وانظر له، كذلك، مع نورتون ميزفسكس. **الأصولية اليهودية في إسرائيل**. – ٣ ج/ ترجمة ناصر عفيفي. – القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

مصاب غيرِ يهودي،[1] وكما هي الحال لدى بعض الثقافات في الهند من البراهمة، الذين لا يسمحون للمنبوذين بإسعاف مصاب لهم، لئلا يتنجَّس هذا من ذاك!

أمَّا على مستوى الأفراد فانظروا في إعلام اليوم عن أنواع القتل والتعذيب لمن تصخَّرت قلوبهم، جمَّدتها الأحقاد الدفينة، والأطماع المثالية، والرغبة في إرضاء ذوي القلوب المتحجِّرة. ويبرز هذا واضحًا في الحروب التي تدور رحاها، وتكون غالبية ضحاياها من الأبرياء، أطفالا ونساءً وشيوخًا، يُقتل أبناؤهم أمامهم، حتى لقد قيل: إنه في الحرب التي دارت رحاها في **كوسوفا**، وفي إحدى القرى قتل الصربُ ثلاثين مسلمًا ألبانيًا من أسرة واحدة، أمام ناظري الجد، كبير السن. وتركوه وحده هائمًا مفجوعًا.

ولقد وقفتُ على قبور أكثر من ثلاثين مسلمًا في قرية أخرى في **كوسوفا**، عُرفت بأنها هي التي بدأت الانتفاضة، للتحرُّر من سيطرة الصرب على الإقليم. والفتنة أشدُّ من القتل. وهذا نوع من أنواع الفتنة. ولها أنواع أخرى كثيرة، ذكرها الإعلام، بل نشرها الإعلام المرئي في هتك أعراض البريئات من النساء، والتلذُّذ بالامهن، وآلام العجائز. ومثل ذلك يقال في **العراق** وفي **فلسطين** المحتلَّة و**أفغانستان**.

---

(١) انظر في تاريخ اليهود: أحمد عثمان. **تاريخ اليهود**. – ط ٢. – ٣ ج. – القاهرة: مكتبة الشروق، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

وفي غير الحروب، نجد قلوبًا قد تصخَّرت في نظرتها للأولاد والأقارب، من الأخوة والأخوات. وكان من نتائج هذا التصخُّر هضمُ الحقوق، وأكلُ الأموال، أموال الأيتام وأموال غيرهم، والضرب المبرح للأولاد والزوجات والتلاميذ. ولقد كنتُ في مدرسة ابتدائية في الرياض، **المدرسة السعودية الجديدة في شارع الريل**، وكان فيها معلِّم من دولة عربية، يتلذَّذ بجلد جلودنا الغضَّة، وراحاتنا الرقيقة، كلَّما وجد لذلك سببًا، حتى أنه كان يطاردنا عندما تنتهي الفسحة الطويلة، و"يلشطُنا" على ظهورنا ومُخؤِّراتنا، بخيزرانة كانت معه، فنذهب إلى الحصة التالية، ونحن نتألَّم من الضرب، فأنَّى لنا أن نستوعب الدروس؟ إن قلوبًا تتحجَّر إلى هذا الحدِّ بحاجة ملحِّة وعاجلة إلى أن يراجع أصحابُها أنفسَهم، وأن يقربوا من الله تعالى، الذي يفرح بتوبة عبده، وهو لا يحتاج إلى توبته، والذي يرحم – سبحانه وتعالى – عبادَه بسبعين جزءًا من رحمة الأمِّ برضيعها.

وكلَّما قرُب المرءُ من الله تعالى رقَّ قلبه، ولانت جوارحه، وبعُد الشيطان عنه، مهما حاول الاقتراب، فكم ذُكرتْ الرحمة في كتاب الله تعالى، وفي سنَّة نبيِّه ورسوله **محمَّد بن عبدالله** ﷺ.

--- --- ---

الوقفة الثانية عشرة: الصِّلة

يدخل المسلمون، اليومَ، الحضارة من أوسع أبوابها. وقد تكون هذه العبارة مرغوبًا فيها، فمَن منا لا يرغب في دخول الحضارة من أوسع أبوابها؟! إلا أن المقصود هنا أن حضارة اليوم اعتمدت المادَّة مسيِّرة لها، فاتَّسعت البلاد الإسلامية، وتضخَّم السكان في المدن بخاصة، وهُجرت الأرياف والقرى نسبيًا. وازدحمت المدن الكبيرة، وزاد حجمها في السكان والعمران، واحتاجت لذلك مزيدًا من مقوِّمات العيش، في الوقت الذي تسير فيه هذه المدن والقرى والأرياف، في ركب الحضارة السريع.

هذا التوسُّع في جانب، والتقليص في جانب آخر، له مساوئُه، كما أن له محاسنَه، إلا أن التركيز على المساوئ هو الغالب في جانب التوسُّع. إذ إن التوسُّع في مكان واحد يبعد الناس عن بعضهم، وإن كان قد يُرى على أنه يقرِّبهم من بعضهم. فأهل المدينة أبعد عن بعضهم من أهل القرى والأرياف.

وهذا يؤثِّر على مسألة الالتقاء والتراحُم والتوادِّ. فلو كان المرء بعيدًا عن أقاربه لكان معذورًا في البعد عن الاتصال، ولكن أن يكون الأقاربُ في مدينة واحدة، ولا يتَّصل بعضهم ببعض، فهذه سيِّئة من سيِّئات هذا التوسُّع. ومع أن الحضارة هيَّأت سبل الاتصال والمواصلات، إلا أنها، في الوقت نفسه، أضافت ضغوطًا نفسيَّة

على أهلها، بحيث لا يجد الواحد منا الوقت ليتَّصلَ بالآخرين، أو ليصل إليهم، إن لم تكن هناك حاجة مادِّية له عندهم.

ومن الناحية النظرية يستطيع المرء استخدام الهاتف، ووسائل الاتصال الإلكترونية الأخرى، والاتصال بقريبه، للسلام عليه. ولكنِّي أظنُّ أن المتحدَّث إليه في الجانب الآخر ينتظر من المتَّصل أكثر من مجرَّد السلام، وكأنَّ السلام أضحى شيئًا مجرَّدًا. مع أن صلة الرحم قاعدة صلبة من القواعد التي يقوم عليها أي مجتمع من المجتمعات، وتؤكِّد عليها أحكام الإسلام، بنصوص القرآن الكريم، وسنَّة المصطفى **محمَّد بن عبدالله** ﷺ.

والتكثيف في صلة الرحم بالزيارة المباشرة، ما أمكن، ثم بالاتصال الهاتفي، أو عبر الرسائل المكتوبة، أو الإلكترونية، إن تعذَّرت الإمكانية المباشرة، كفيل بأن يزيل هذا الانطباع، الذي يكاد يشيع بين الناس، بأن الرابطة إنما تحوَّلت إلى الجوانب النفعية بين الناس. ونظرًا للتأثُّر الطارئ على نمط العيش المجلوب من مجتمعات، غلَّبت الجانب المادِّي في مفهوم الحضارة، يرغَبُ الناسُ، الآن، في الاتصال قبل القدوم للزيارة، ولم يكن هذا ديدنَ الأسلاف، عندما كانت الحياة أبسط بكثير مما هي عليه الآن. وليس ديدنَ بعض من قومنا اليوم، الذين لا يلتفتون إلى تعقيدات الحياة، وبروتوكولات الزيارات من أخذ المواعيد، والتأكُّد من مناسبة الوقت.

openkaad.com

والشرع يقرُّ أن للمرء خصوصيَّته، ويؤكِّد على ثلاثة أوقات في اليوم والليلة، يكون المرء فيها أقربَ إلى الخصوصيَّة. وهي وقت الفجر ووقت الظهيرة ووقت الليل، ولذا تؤكِّد النصوص، في القرآن الكريم، والسنَّة النبوية الشريفة، على الاستئذان في هذه الأوقات، وعدم دخول أفراد محددَّين على المرء فيها، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾. (النور ٥٨).

ومع إقرار القرآن الكريم والسنَّة النبوية المطهَّرة على خصوصيَّات المرء، فإن هذا الإقرار لا يتعارض، بحال، مع التوكيد على التوادِّ والتراحُم، فلكلٍّ وقته، والتوادُّ والتراحُم والصلة، على أيِّ حال، لا تأخذ من المرء وقته كلَّه، بل لا تأخذ منه جُلَّ وقته.

إن هذا التأثُّر بالحضارة المادِّية طارئ؛ لأن أحكام الإسلام بعامَّة، ومنها صلة الرحم، تتماشى مع الفطرة، والإنسان ميَّالٌ إلى العودة إلى ما فطره الله عليه، مع التوجيه للفطرة، مهما جرَّب من صنوف التوجُّهات والتنظيرات، والتعلُّق بما قد يبدو عليه أنه ارتقاء نحو الأفضل. بينما يتَّضح منه، بَعدَ تجربته، أنه يتَّجه إلى العكس

obeikandi.com

تمامًا، فيعين على تصدُّع الأسر، وتفكُّك الأرحام، وابتعاد الناس عن بعضهم، واقتحام التباغُض والتنافُر عليهم، وإنكار بعضهم لبعض. بينما نجد أن وسيلةً واحدةً سهلةً وميسورةً للجميع، وهي إفشاء السلام بين المسلمين، كفيلةٌ بترسيخ مفهومات التوادِّ والتحابُب والأخوَّة بينهم.(١)

فإذا كان هذا تأثير السلام بين العابرين، فما بالكم باللقاء في الله، والمحبة في الله، وتخصيص الوقت لأجل هذا المفهوم البنَّاء، في دنيا المسلمين وفي آخرتهم.

--- --- ---

(١) عن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا، أوَلا أدلُّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم». رواه مسلم، وأخرجه أبو داود والترمذي.

obeikandi.com